الرعايا غير العبيد

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

كنت أحب للأستاذ الفاضل الشيخ خالد محمد خالد وهو عالم أزهرى أن يتأمل قليلا فى اسم كتابه الجديد — مواطنون لا رعايا — ولو أنه تأمل قليلا فى معنى كلمة رعايا لاختار له هذا الاسم — مواطنون لا عبيد — لأن موضوع كتابه فى هذا المعنى . ولو أنه سماه أيضا — رعايا لا عبيد — لما خرج عن معنى كتابه ، ولما خرج عما ينبغى اسالم من علماء الدين ، والأستاذ من أساتذة اللغة ، لأنه أساء إلى كلمة رعايا ، وحملها ما لا تحمله فى اللغة والدين

روى مسلم والترمذى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال . كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ؛ الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى مال أبيه ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته

وفى هذا الحديث دلالة صريحة على أن الراعى ليس معناه السيد ، حتى تكون الرعية بمعنى العبيد ، لأنه جعل كل واحد من الناس راعيا ، فلو كان الراعى بمعنى السيد والرعية بمعنى العبيد لكان كل واحد من الناس سيدا وعبدا فى وقت واحد ، وهذا تناقض . على أن الحديث جعل الخادم راعيا فى مال سيده ، وفى هذا دلالة قاطعة على أن الراعى ليس بمعنى السيد ، وإلا انقلب الوضع فى هذه الحالة ، لأن الخادم مسود لا سيد

وهذا عثمان بن عفان يكتب إلى عماله فى أول خلافته ، فيطلب إليهم أن يكونوا رعاة لا جباة ، فيعطى هذه الكلمة معناها الكريم ، ويقول فى ذلك : أما بعد ؛ فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ، ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن أحدكم أن يصيروا جباة ، ولا يكونوا رعاة ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء ، والأمانة والوفاء . ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين ، وفيما عليهم ، فتعطوهم الذى لهم ، وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة ، فتعطوهم الذى لهم ، وتأخذوهم بالذى عليهم ، ثم العدو الذى تتقابلون ، فاستفتحوا عليهم بالوفاء

فيفرق عثمان فى هذا بين الرعاة والجباة ، وهذا الفرق يكاد يحمل الجباة معنى السادة الذين يتعالون على الرعية ، وينظرون إليها من الناحية المالية ، فلا يهمهم إلا أن ينتزعوا منها مالها وهم فى عزة السادة ، وإلا أن تقدم إليهم هذا المال فى صغار وذلة ، وعلى هذا يكون الرعاة الذين يقابلون الجباة لا يحملون شيئا من معنى السادة ، ولا تكون الرعية لهم عبيدا ، بل يجمعهم جميعا اسم المواطن

فإذا انتقلنا من هذا إلى معنى كلمة رعية فى اللغة وجدنا القاموس يقول : الراعى كل من ولى أمر قوم ، والجمع رعاة ورعيان ورعاء وقد يكسر ، والقوم رعية كعنية . ثم يقول : وراعيته لاحظته محسنا إليه ، وراعيت الأمر نظرت إلى ما يصير ، وراعى أمره حفظه كراعاه ، واسترعاه إياه استحفظه

وإذا انتقلنا من القاموس إلى النهاية فى غريب الحديث والأثر وجدناها تقول : وفى الحديث « نساء قريش خير نساء ، أحناه على طفل فى صغره ، وأرعاه على زوج فى ذات يده » هو من المراعاة الحفظ والرفق وتخفيف الكلف والأثقال عنه ، ومنه الحديث « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » أى حافظ مؤتمن ، والرعية كل من شمله حفظ الراعى ونظره ، وفى الحديث « إلا إرعاه عليه » أى إبقاء ورفقا ؛ يقال أرعيت عليه ، والمراعاة الملاحظة ، وفى حديث عمر « لا يعطى من الغنائم شيئا حتى تقسم إلا لراع أو دليل » الراعى ههنا عين القوم على العدو ، من الرعاية والحفظ ، ومنه حديث لقمان بن عاد « إذا رعى القوم فغفل » يريد إذا تحافظ القوم لشئ يخافونه غفل ولم يرعهم

وإذا انتقلنا بعد هذا إلى المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير وجدناه يقول : وقيل الحاكم والأمير راع لقيامه بتدبير

الناس وسياستهم ، والناس رعية ، وراعيت الأمر نظرت فى عاقبته ، وراعيته لاحظته

وفى كل هذه النقول من كتب اللغة لا نجد فى كلمة راع ورعاة معنى السيادة والتسلط والتحكم ، ولا فى كلمة رعية معنى الخدمة والعبودية ، وإنما وظيفة الراعى حفظ الرعية وملاحظتها بالرفق واللطف ، والإبقاء عليها بصيانتها عن موارد الهلكة ، وتدبيرها وسياستها بالعدل ، وهو فى هذا أقرب إلى أن يكون خادما للرعية ، والرعية فيه أقرب إلى أن تكون هى المخدومة

وكذلك الأمر فى الرعية من جهة الدين ، لا شئ فيها من معنى العبودية ، ولا شئ فى الرعاة من معنى السيادة ، وإنما الخليفة وولاته أصحاب وظائف فى الرعية ، يخدمونها بأجر تفرضه لهم على قدر حاجتهم ، وهى التى تختارهم لخدمتها بمحض إرادتها ، وهى التى تعزلهم إذا أساءوا فى خدمتها ، فهى صاحبة السلطة عليهم فى الحقيقة ، وهى الراعية عليهم فى نفس الأمر ، وهم خدامها فى الواقع ، وما الخليفة وولاته إلا وكلاء عنها فى تدبير أمورها العامة ، لأن كل فرد منها تشغله أموره الخاصة فى دنياه ، فلا بد لها من أفراد منها ينوبون عنها فى تدبير أمورها العامة ، ولا يمتازون فى هذا بشئ عليها ، وإنما هم رعية مثلها ، يقومون بأعمالهم كما يقوم كل فرد من الرعية بعمله ، ولا يستحقون ما يأخذونه من المال لذاتهم أو لشرفهم ، وإنما يستحقونه بما يقومون به من عمل ، ولهذا أعطاهم الإسلام اسم العمال ، فقال تعالى فى الآية — ٦٠ — من سورة التوبة (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) فالعاملون عليها هم الولاة ، وهم العمال ، ولا مانع من أن يدخل فيهم الخليفة ، لأنه رئيس هؤلاء العمال ، ولم تكن حكومة الخلفاء الراشدين إلا حكومة عمال ، وهذا قبل أن تعرف أوربا الحديثة هذا النظام فى الحكم ، وقد كانت حكومة عمال صالحة ، ولم تكن حكومة عمال لا تتورع عن السياسة الآثمة ، كما لا تتورع حكومات العمال فى أوربا الحديثة عن هذه السياسة

وقد كان على الأستاذ الشيخ خالد محمد خالد أن يعرف هذا كله ، وأن يدرك أن الناس حينما يطلقون على اسم كتابه — مواطنون لا رعايا — ينتقل نظرهم إلى حديث « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ويفهمون أن الحديث يقر الرعية بالمعنى الذى ينكره اسم كتابه ، وفى هذا ما فيه . وعلى الأزهر أن يتدبر فى أمر أهله بالإصلاح الذى دعونا إليه ، وتوالى علينا الظلم بسببه ، حتى يستقيم تفكيرهم ، ولا تتغلب عليهم مطاماتهم الخاصة ، وقد أعذر من أنذر

عبد المتعال الصعيدى

ظهرت الطبعة الثانية للرحلات الأولى

رحلات

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

سفير مصر فى الباكستان

ثمن هذا المجلد ثلاثون قرشا عدا أجرة البريد

وهو يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الشهيرة